



حوار التراث والعصر في الفكر المصري الحديث

- ١ -

عادة ما يُورخ للبقعة القومية بحملة نابليون على مصر ، اذ تم خلالها اول لقاء بين الحضارة الغربية والعالم العربي ، الاولى في عصر نهضتها ، والثانية بعد قرون من الانحطاط .

والواقع اننا لا يمكن ان نعزو الاثر الايجابي - الوجه الحضاري - للاحتلال الفرنسي الى خطة موجهة من جانب المستعمر اذ انصب جهد العلماء الذين صحبوا الحملة الفرنسية على دراسة التاريخ القديم وتسجيله ، اي انهم جاؤوا لينهلوا من الترات وينقلوا المعارف ، لا ليثروا حضارتهم وعلومهم . وعلى اية حال فسرعان ما امتصوا فسي مشكلات الحياة اليومية والاجهزة الادارية للسلطة الاستعمارية .

لقد كان اهم جسر للمعارف الاوروبية يتمثل في الشيخ حسن بن محمد العطار (١٧٦٦ - ١٨٣٥) الذي كانت مهمته مقصورة على تعليمهم العربية ، ولكنه بهر وشغف بحضارتهم فقام باستيعاب علومهم وراح يدعو الى ضرورة « التغيير » ، بان ناخذ عن اوروبا كل العلوم الحديثة التي نفتقر اليها في بلادنا .

وادرك محمد علي ما يجسده العلم والمعرفة من قوة ، فوفد ورعى البعثات التعليمية الى فرنسا وانجلترا وايطاليا واقام مدرسة اللسان ، وفصل التعليم من مصلحة الحرية War Department وانشأ مدرستين اعداديتين ونحو خمسين مدرسة ابتدائية ، وطالب البعوثين بعقد عودتهم بنقل معارفهم الى الناس ، فقاموا بترجمة نحو ٢٠٠ كتاب ونشرة علمية ، وامر بقراءة اول كتاب عن اوروبا « تلخيص الابرز » - لرفاعة الطهطاوي - في جميع المدارس .

وكان رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٢) هو نموذج المثقف الليبرالي الذي اثمرته سياسة محمد علي التعليمية . عالج في كتبه (خاصة « المناهج ») كل جوانب الإصلاح الاجتماعي ، فدعا المواطنين الى التفرقة بين « اخوة البلد واخوة الدين » ناقش حقوق وواجبات الحكام ، ووضح ضرورة بلورة رأي عام لاستخدامه كاداة للضغط ضد نزوات الحكام وان « يكون الحكم بالكلية للرعية » وانه « لا حاجة ملك اصلا » ، وان « الامة يجب ان توكل عنها من تختاره منها للحكم » .

شجع « الاجتهاد » على اساس انه « الثمار المشرفة لافضل العقول » طالب بالابتعاد عن تعاليم المدرسة الحنيفية في الشريعة « اذا ما اريد للبلاد ممارسات حديثة لشؤونها » . ووضح ان الشريعة الاسلامية تفيد في تعليم مبادئ المنفعة الاجتماعية . لكن الاحتياجات الاقتصادية للتطور الحضاري المصري تجعل من الضروري الاستفادة من القوانين التجارية والتشريعات الائتمالية الاوروبية . وانتقد الازهر لابتعاده عن دراسة

المواضيع العلمانية ، وأكد ان انعاش الحركة الثقافية في الازهر رهن بدراسة الفنون الحديثة للادارة والحكم ومختلف العلوم الاوروبية المعاصرة .

كان رفاعة الطهطاوي اول من رأى في مصر قومية متميزة داخل المجتمع الاسلامي . اما الافكار السياسية التي بشر بها الطهطاوي في مناهج الالباب فيمكن تلخيصها فيما يلي :

اولا : تثبيت فكرة القومية المصرية .

ثانيا - تثبيت فكرة الدولة العلمانية او الزمنية .

ثالثا - تثبيت مقومات المجتمع البرجوازي التقدمي سياسيا واقتصاديا » .

وجاء التدخل الاجنبي ليجهض تلك الصحوة الحضارية والتيار الليبرالي العلماني وبدأت مرحلة من التدهور في عهد عباس باشا وسعيد باشا ، ثم جاء اسماعيل (١٨٦٢ - ١٨٧٩) الذي تبنى الجانب الحضاري في الاتصال باوروبا . وكان عصره من ازهى العصور (ومن الملاحظ ان محمد علي كان يركز على العلوم البحتة ، بينما اهتم اسماعيل بالفنون والاداب والموسيقى بالاضافة الى البعثات العلمية)

وبرز من رواد الفكر في هذا العهد جمال الدين الافغاني السذي ساعد على تكوين اول حزب قومي « الحزب الوطني » يضم المسلمين والاقباط واليهود وينصب نشاطه على المسائل السياسية وحدها . وكان الشيخ حسن المرصفي يدعو الى دعم الحرف وتقوية الصناعة ومنع البضائع الاجنبية . كما شن حملة ضارية على رجال الدين المتخلفين .

ومن اهم معالم عهد اسماعيل انعاش الصحافة على يد الكتاب المصريين والسوريين (اديب مرشان - عبدالله النديم) ومعالجتها لمختلف الشؤون السياسية والاجتماعية من منطلق ليبرالي .

وفي عام ١٨٦٦ جمع اسماعيل الجمعية التشريعية . وفي العام التالي مباشرة قام اعضاؤها بمعارضة سياسة الخديوي المالية وطالبت بحق اقرار ميزانية البلاد . وازدادت المعارضة على اثر تعيين ممثلين لبريطانيا وفرنسا في مجلس الوزراء وقاد المعارضة تلامذة الافغاني (عبد السلام المولحي) . وكان لهذا التزاوج بين الحركة الفكرية النشطة والحركة السياسية اثره في تشكيل « الجمعية الوطنية » والى صياغة دستور شريف باشا ، الذي لم يقدر له ان يرى النور من الناحية التطبيقية اذ سرعان ما بادرت القوى الاوروبية الى التدخل وعزل اسماعيل وضرب الحركة في مهدها .

لكن ، كانت نتيجة هذا التدخل تاجيح المشاعر الوطنية وتحالف البرلمانيين الليبراليين مع الضباط المصريين في الجيش . فالليبراليون

(الشيخ علي عبدالرازق (٢) - امين الخولي - محمد خلف الله - خالد محمد خالد ...)
 - تيار ديني رجعي (حسن البنا - سيد قطب) .
 - تيار مصري شوفيني متأثر بالحركات النازية والفاشية .
 (حزب مصر الفتاة بقيادة احمد حسين وشعاره « مصر فوق الجميع ») .
 - تيار اشتراكي متفتح على الفكر الاشتراكي العلمي معنسى اساسا بقضية الصراع الاجتماعي .

وجاءت انتفاضات عام ١٩٣٥ و ١٩٣٦ ، لتتكس مرة اخرى وتتجسد الهزيمة في المعاهدة المصرية البريطانية .
 ومن المعالم البارزة للمرحلة التالية انحسار التيار العلماني الديمقراطي ، بشروع معظم رواد الفكر الليبرالي في الهروب من مواجهة الواقع المعاصر والدخول في مناهات اللاهوت والتاريخ الاسلامي . وتركز نشاطهم في اعادة صياغة السيرة المحمدية والتخصص في الكتابة عن العصور الاولى في الاسلام (عبقريات العقاد ذائعة الصيت - كتاب محمد لتوفيق الحكيم - على هامش السيرة والفتنة الكبرى لطف حسين) ، وان استمر تبشيرهم بالمنهج العلمي والعقلي في معظم كتاباتهم خاصة طه حسين وتوفيق الحكيم:

- ١ - تبني المنهج العقلي بديكارات .
- ٢ - وان لا سلطان على العقل . الا للعقل نفسه .

كان هذا الاتجاه بمثابة رفع الراية البيضاء من جانب هؤلاء المفكرين . ولعل هذا ما يفسر فراغ الميدان الفكري في مصر امام الافكار الجديدة وخاصة الاشتراكية منها (منذ اواخر الثلاثينيات - اي مع بداية الحرب العالمية الثانية الى نهاية الاربعينيات يمكن القول بان هذه الفترة هي « عقد الفكر الاشتراكي » ولكن هذا التيار يعتبر امتدادا للمنهج العقلاني لرواده الاوائل .

- ٢ -

كانت الثقافة الفرنسية والانجليزية هي مصدر الفكر الاساسي لهذا التيار الوافد مع الحرب ، بالإضافة الى الثقافة السوفييتية في المراحل الاخيرة منها . وقد التقى فيه بالفكر على نحو لا نلاحظه في اي مرحلة اخرى .

فمثلا جماعة الفن والحرية التي أسسها كامل التلمساني في عام ١٩٣٩ مع أنور كامل ورمسيس يونان وغيرهم ، كانت تتبنى الاتجاه السريالي في الفن والماركسية في الفكر كما كان بعض اعضائها من التروتسكيين وهو الامر الذي يدل على مدى الاضطراب والبلبلية من ناحية ولكن يدل في نفس الوقت على التفاعل والانفتاح المتعاظم على الثقافات التقدمية الوافدة من الغرب .

بل لعلنا نلاحظ هنا ايضا ان معظم الذين اشتركوا في الحركة الاشتراكية في تلك المرحلة كانوا من المثقفين في فروع العلوم الانسانية والفنون فكان الادب والفن مدخلهم الى الفكر الاشتراكي .

(رشدي صالح - عبدالرحمن الخميسي - عبدالرحمن الشرفاوي - ابو سيف يوسف) وكانت نماذج الادب الاشتراكي (السوفييتي والغربي) هي مصادر الالهام الرئيسي فيما يكتبونه من فكر ويخلقون من فن ، بالإضافة الى حركة الترجمة النشطة التي قاموا بها .
 وظهرت ثلاثة منابر اساسية لهذا التيار .

- مجلة التطور (صدر العدد الاول في يناير ١٩٤٠) رأس تحريرها أنور كامل .

- المجلة الجديدة : تسلم الاشراف على تحريرها في عام ١٩٤٢ رمسيس يونان وزملاؤه بعد سلامة موسى .

راوا في الجيش قوة قادرة على التصدي للارهاب الاوروبي والخطوي توفيق ، كما ان التذمر كان يسود بين الضباط المصريين بعد هزيمة الجيش ونتيجة سيطرة الضباط الشراكسة وعدم انتظام دفع المرتبات . وبرز دور احمد عرابي كقائد وزعيم وطني (وكان قد درس بالازهر على محمد عبده وحسن الطويل - من تلامذة الافغاني) .

هينئذ ، تدخل الاستعمار البريطاني بصورة سافرة ، ليقتضي على اليقظة الفكرية والاجتماعية والسياسية . وكتب كرومر فيما بعد مؤكدا انه « لا يوجد ثمة شك في ان عرابي لو ترك لحاله لتحقق له النجاح . ان التدخل البريطاني كان سببا في عجزه عن تحقيق النصر » .

كانت نكسة للحركة الليبرالية والعلمانية ، حتى ان الافغاني (١) ومحمد عبده عندما انشأا جمعية العروة الوثقى ، واصدرا مجلة تحت نفس الاسم في باريس عام ١٨٨٤ عادا الى نقمة الجامعة الاسلامية . فقد جاء في العدد الاول للمجلة « ان الرابطة الدينية بين المسلمين هي اقوى من اي رابطة عرقية او لغوية » . وان كانت دوتهما ظلت متأثرة بالفكر الليبرالي ، اذ طالبا بان يكون « تفسير الايمان لا يتعارض مع الاحتياجات المصرية » .

وتركز نشاط الحركة الوطنية لهذه المرحلة في نشر التعليم ادراكا لاهمية الثقافة المصرية ، وكشكل من اشكال النضال بمناهضة السياسة التعليمية البريطانية . وتميزت السنوات التالية بتكوين عدد كبير من اللجان الوطنية لافتتاح المدارس ، نجحت في انشاء معاهد كانت تضم - عام ١٨٩٧ - نحو ١٨١٠٠ تلميذ ، مقابل ١١٠٠٠ فقط ينتظمون في الدراسة بالمدارس الحكومية .

كما شهدت البلاد نهضة صحفية وامتد الصراع الفكري الى صفحات الجرائد والمجلات (المؤيد ، والمقتطف والهلال واللواء ... الخ) . وكان من ابرز الكتاب واكثرهم تقدما شبلي شميل واسماعيل مظهر وفرح انطون وواد المنهج العلمي من الفن . وتميز شبلي شميل خاصة بشمول نظريته العلمية وتشعب اهتماماته وقد ترجم كتاب بوختر وفلسفة المادة واستعرض اهم المنجزات العلمية والنظريات الحديثة .

وترجم اسماعيل مظهر نظرية « النشوء والارتقاء » وانتعش الفكر الليبرالي (علي مبارك - في التعليم - وقاسم امين - حرية المرأة - الخ) وقد سميت هذه الفترة « بالمرحلة الصحافية للوطنية المصرية . وبرز تياران اساسيان :

- تيار مع الحضارة الغربية باتجاهاته المختلفة ، عبر منه سياسيا حزب الامة - الذي تحول فيما بعد الى حزب الوفد - (احمد لطفي السيد ، سعد زغلول .. الخ)

- تيار مناهض للحضارة الغربية ، عبر منه الحزب الوطني (مصطفى كامل - محمد فريد ، لكن فريد التقى فيما بعد بالفكر الاوروبي وتأثر به واصبح له تفكير متميز) .

والمرت هذه الحركة ثورة وطنية شعبية ضد الاستعمار البريطاني . وكان مصير ثورة ١٩١٩ هو نفس مصير الثورات السابقة ...
 التدخل الاجنبي لقوات الاحتلال لاجهاض النهضة المصرية .

في هذه المرحلة وما تلاها ، يمكن ان نعدد التيارات الفكرية التي تبلورت في اتجاهات اكثر تحديدا فيما يلي :

- تيار مصري يلتقي مع الحضارة الغربية ، ويعادي الاستعمار البريطاني والخلافة العثمانية على حد سواء .

(سلامة موسى - طه حسين - توفيق الحكيم - حسين فوزي - العقاد ، محمد حسين هيكل ...) .

- تيار ديني اسلامي متحرر مستنير .

(١) كان الافغاني من دعاة الجامعة الاسلامية اما محمد عبده فقد تبني المنهج العقلي في تفسير الاسلام ، ويرى انه اذا توصل العقل الى نتائج مضادة ، يؤخذ بالعقل .

(٢) وان كان هناك تحفظ في اتجاهاته ، اذا راعينا دوافعه السياسية موقفه من الملك .

– مجلة الفجر الجديد : برئاسة احمد رشدي صالح .

وفي هذه المنابر كان الاشتراكيون المصريون يمدحون الاتجاه الى:

١ – العلمانية .

٢ – الديمقراطية .

٣ – بلر الافكار الاجتماعية .

٤ – تفسير الاداب والفنون من التأثير بالادب العربي ومن الرومانسية الى التاثر بالاداب الغربية (الاشتراكية على وجه الخصوص) والاتجاه الى الواقعية .

وقد شهدت الأربعينيات صراعا عنيفا بين اليسار واليمين في الفكر المصري حقق فيه الفكر الوطني الديمقراطي انتصارات سياسية بارزة عام ١٩٤٦ بتكوين اللجنة الوطنية للطلبة والعمال . ذلك ان حزب الوفد كان قد اثمر من داخله ما يسمى « بالطليعة الوفدية » التي شكلت تيارا راديكاليا في الحركة الوطنية (عزيز فهمي مندور) يلتقي مع الاشتراكية في العلمانية والديمقراطية ، ويتخذ لنفسه طريقا خاصا متميزا في فهم ومعالجة قضية الصراع الاجتماعي .

وفي مواجهة هذا الانتعاش اليساري والاشتراكي برزت قوى اليمين الشوفيني والرجعي من خلال عملية الاستقطاب العظمى التي كانت تجري داخل المجتمع وتضاعف نشاط جماعة الاخوان المسلمين .

غير ان الرجعية الحاكمة بتأييد وتحالف مع اليمين المتطرف (صدقي ممثل الراسمالية الكومبرادورية والسراي واحزاب الاقلية وحزب الاخوان المسلمين) تصافروا لضرب هذا التيار . لكن كل هذه القوى مجتمعة كانت عاجزة عن اجهاضه ، رغم اجراءات القهر العنيفة التي مارستها ضد الحركة الشعبية ، اذ كانت قد فقدت قدرتها على ان تصبح بديلا موضوعيا في تمثيل درجة التقدم الذي وصلت اليه البلاد .

وفضحت هزيمة ٤٨ مدى تفسخ النظام وهجزه عن انجاز المهام المطروحة على النطاق القومي .

وبلغ المد الشعبي ذروته في الكفاح المسلح ضد قوات الاحتلال البريطاني في القتال ، والدعوة الى اسقاط النظام الملكي وانتفاضات الفلاحين ضد الاقطاع ودخولهم معارك مسلحة ضد السلطة . كان البديل الطبيعي والمنطقي يتشكل بسرعة وينتظم في جبهة وطنية عريضة تضم القوى الليبرالية والشيوعية والاشتراكيين الجدد واليسار الوطني عامة بمختلف اتجاهاته .

– ٢ –

وكالت الرجعية ضربة جديدة بعد ان اضطرت الى حرق القاهرة لاعلان الاحكام العرفية وفرض حكم الحديد والنار . ورغم ذلك ظل النظام مهتزا مهرا .

وجاء بديل غير متوقع على الاطلاق وهو حركة ٢٣ يوليو ، اذ لم يكن العسكريون في مجموعهم يمثلون حينئذ اي تيار فكري داخل الحركة الثورية (كتتنظيم عسكري سري) وسرعان ما تخلص من اعضاءه المنتهين الى التنظيم الماركسي والاخوان وقد جاء هذا الانتصار بالدقة نتيجة تفتت القوى الوطنية والتقدمية وعجز قطبي الصراع (البرجوازية الكبيرة والبروليتاريا عن استلام السلطة) . وهكذا تم – موضوعيا – اجهاض الحركة الشعبية .. اجهاضا من نوع جديد .. من الداخل ، رغم كل ما حققته حركة يوليو من انتصارات وطنية وتقنية .

وكان من الطبيعي ان ترفض الفئة الحاكمة الجديدة كلا من الفكر الرجعي والمنهج الاشتراكي العلمي (الماركسية اللينينية) وتبنت السلطة الفكر البراجماتي الذي « يخضع الحقيقة الشعبية للمنفعة السلطوية » . وقد تجاذبت قيادة الثورة في مصر تيارات متباينة ، كان فيها الوزن الاكبر لهذا الاتجاه او ذلك ، بتباين مستوى المعركة مع الاستعمار

والصهيونية والرجعية ومع تغير علاقات القوى في الداخل ، ولكنها لم تخرج ابدا عن اطار الفكر البرجوازي الوطني .

وكان تصاعد واحتدام الصراع مع الامبريالية سببا مباشرا لتزايد الاعتداءات الاسرائيلية منذ يناير ١٩٥٥ ، ثم وقوع عدوان ١٩٥٦ في محاولة جديدة لاجهاض الخط الوطني التحريري من الخارج .

ثم كانت الانجازات التي تحققت في مصر منذ عام ١٩٦١ حتى ١٩٦٥ وما تمخضت عنه من صحوة فكرية وسياسية وتقدم اقتصادي واجتماعي ، كانت مبررا لشن عدوان ١٩٦٧ ولضرب النهضة العربية الشاملة .

ومنذ نجاح حركة يوليو ١٩٥٢ ظل الصراع الفكري على اشده – تحكمه الرقابة المشددة بطبيعة الحال – بين المدارس الفكرية المختلفة أبرزها فكر البرجوازية الوطنية ، الصغيرة والمتوسطة الذي تتنازعه تصورات متباينة ، حشرت جميعها تحت لافتات « الاشتراكية » ، الاشتراكية الاسلامية والاشتراكية التعاونية والاشتراكية العربية ، واهم ما يحكمها الانطلاق على الذات و « الانشاق من واقعنا » ، ثم – الاشتراكية العلمية – وهي من العلمية براء – الا انها التيسار الراديكالي الذي يتميز بالانفتاح على العالم ، لا تلتزم بمنهج معين وانما بالانتقائية – من كل المذاهب والافكار – لما يتفق مع « ظروفنا وواقعنا وتقاليدنا وعقائدنا » .

تلك كانت التيارات الرئيسية التي تتبناها السلطة بدرجات متفاوتة في المراحل المختلفة في مواجهة الفكر الماركسي اللينيني من جانب والفكر الرجعي من الجانب الاخر .

وظل الفكر الماركسي يلقي القدر الاكبر من العناية في التعبير عن نفسه ، فيما عدا بعض الاتجاهات الانتهازية والتحريرية والمراجعة التي ظلت تتحدث باسم الماركسية وتسخر الاقلام في خدمة الفكر البرجوازي الوطني .

واستمر الصراع محتدما حول كل ما يمس القضايا الوطنية والسياسية والاجتماعية والفكرية والثقافية وامتد الى مناقشات وحوار عنيف عن مفهوم الحرية والثورة الاجتماعية والقومية والوحدة والواقعية والدولة المصرية والتحالف والتنظيم ، وكل جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية .

وحظي التراث والعلاقة بين الدين والدولة بالنصيب الاكبر من الاهتمام . فمن جانب نجد القوى التقدمية تصدى للتيار الرجعي في كتابات عديدة من أهمها « محمد رسول الحرية » لعبد الرحمن الشرفاوي و « اليمين واليسار في الاسلام » لاحمد عباس صالح و « الله والانسان » للدكتور مصطفى محمود (قبل ان يتحول الى الجانب الاخر ، ومن الطريف ان جمال عبدالناصر اثناء اجتماع المؤتمر القومي الاول رد على سؤال لخالد محمد خالد قائلا انه لم يصادر طيلة حياته الا كتابا واحدا ضد الدين . وكان يقصد هذا الكتاب) وكتابات محمد عمارة في التراث الاسلامي وكتاب المفكر الشاب الدكتور عاطف احمد « نقد الفهم المصري للقرآن » . وهو مصادر ايضا وكتابات بعض المفكرين السوريين واللبنانيين مثل كتاب « نقد الفكر الديني » للدكتور صادق جلال العظم وكتاب « مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط » للدكتور طيب تزيني وكتاب « دراسات يسارية في الفكر اليميني » لعفيف فراج .

هذا بالإضافة الى الحوار الدائر حول قضية التراث حاليا باقلام نقدية مثل اديب ديمتري وامير اسكندر وغالي شكوي (في المنابر الفكرية المصرية مثل الطليعة والكتاب والجمهورية والتي تعبر عن نقلة الفكر العلمي في مواجهة الطوفان الرجعي .

والافكار الرئيسية عن التراث في الكتابات التقدمية الان هي ان – ١ – كلمة التراث لا تعني التراث الاسلامي فقط وانما تعني التراث في المنطقة العربية بأسرها منذ اقدم العصور حتى الان .

– التتمة على الصفحة – ٦٩ –

حوار التراث والعصر

تابع المنشور على الصفحة - ٧ -

٢ - انه ليس هناك تراث مخلوق من العدم ، دائما هو احدى نمرات فكر الانسان ، وبالتالي فهو تيس مقدسا من المقدسات وانما هو عمل انساني يحتمل الصواب والخطأ .

٣ - ليس هناك تراث نقي من التأثيرات المحيطة به فسي تراث الشعوب الاخرى ، وانما القانون الاساسي للحضارة هو تفاعل تراثات جميع الاوطان .

٤ - ان اختيار هذا الجانب او ذلك من التراث انما ينبغي ان يتم على ضوء متطلبات الواقع المعاصر واحتياجاته الفعلية من اجل التقدم . ومن ثم فلا بد ان تحكم نظرتنا الى التراث ثلاثة عناصر هي :

النظرة الطبقيه - النظرة القومية - النظرة الانسانية .

اما الجانب الاخر فيفصح عن دعوته الى الاشتراكية الاسلامية المنبثقة من واقعنا . وظهر هذا الاتجاه في مرحلة مبكرة . ومن اخطر الكتابات واعظمها تأثيرا في هذا المجال كتاب « مصطفى السباعي » عن « اشتراكية الاسلام » وزع في مصر توزيعا رسميا وشعبيا ، اصغاف توزيعه في اي بلد عربي آخر ، ثم كتابات « سيد قطب » - قطب ومنظر جماعة الاخوان المسلمين - التي كانت تطبع وتوزع في مؤسسات الدولة .

وبعد هزيمة ٦٧ انتعشت الى حد كبير الدعوة التيوقراطية المعادية للعلم وازدهرت الى حد كبير ، ازدهارا بالغا بعد وفاة عبد الناصر ونتيجة التغيرات في طبيعة السلطة وتمثيلها الطيقي . وسادت النظرية الفيسية للعالم . فقد زاد نفوذ الرجعية وتسربت بعض عناصرها الى اجهزة ومؤسسات السلطة واستفحل نفوذ البرجوازية الزراعية بمد اقصاء ممثلي اليسار الناصري . هذه القوى ليست لديها ما تقدمه من فكر كبديل عن الفكر الراديكالي المتزايد الاثر والانتشار بيسن الجماهير - غير التراث بالصورة التي يقدمونه به .. التراث المحدد بفترة تاريخية تبدأ من ظهور الاسلام او الفتح العربي وتنتهي قبل حكم محمد علي .. يختارون من هذه الفترة اكثر عناصرها سلبية واكثر رموزها نكوصا الى الوراء .

تسنى هذه الكتابات اليوم مجلة منبر الاسلام ومجلة لواء الاسلام وكلية دار العلوم واقسام اللغة العربية بكليات الاداب والازهر ، وبعض الابواب الثابتة في الصحافة الاسوعية واليومية ، ثم في اكثر اجهزة الاعلام انتشارا وجماهيرية ، وتقصد الاذاعة والتلفزيون .

هذا ، بالإضافة الى سيل متدفق من الكتب .. و د . مصطفى محمود يكتب ما يدعو تفسيراً عصريا للقرآن بأسلوبه الجذاب الذي يقبل عليه الآلاف من شباننا (وزع ٨٠ ألف نسخة وهو رقم خيالي بالنسبة لمستوى التوزيع في مصر) ثم كتابات انيس منصور في جريدة الاخبار الرائجة وقد تخصص في اشاعة النظرة الفيسية للعالم .. والتي تعبر في جملتها عن تيار كاسح (وزع كتابه « الذين هبطوا من السماء » ٥٠ الف نسخة) .

ولقد اتخذ هذا التيار طريقه الى الوثائق الرسمية ، فيما يمكن ان نلاحظه على مشروع دليل العمل الفكري والسياسي الجديد الذي اصدرته الامانة العامة للاتحاد الاشتراكي ، اذ يشكل ردة يمينية على المستوى الفكري .. مثال قوله « ان الممارسة اليومية للعمل السياسي عبر فترة طويلة قد كشفت عن بعض المحاولات لتفسير مبادئ وفكر الثورة تفسيرات لا تلتزم الواقع المصري والعربي الاصيل ، وانما تحاول الاستناد في مضمونها الى عقائد ومذاهب وافدة ومطروحة على الساحة العالمية ، ربما كانت صالحة في بعض المجتمعات، ولكنها

عندنا لا تتلاقى مع المقومات الذاتية لشعبنا . وبالتالي فان استيراد مضامين من هذا النوع لا تكون عامل توضيح وتحديد لرؤيتنا (و بعيد التأكيد على الخصائص المميزة لاشتراكييتنا) .. « الاشتراكية العربية » (ومما تجدر الاشارة اليه ان عبدالناصر كان يرفض هذه التسمية ، واحل مكانها تعبير « الاشتراكية العلمية » في الميثاق) ، وهي التسي « تستمد اصولها من مبادئ عقيدة هذا الشعب واصولها الروحانية الضاربة في اعماق التاريخ ، شريعة الحق ، شريعة الله تجعلنا نؤمن ان عندنا ما نستقني به عنها (اي المذاهب الوافدة ويكرر التأكيد على « تراثنا وديننا » .

نفس هذا الاتجاه - بصورة اكثر يمينية وتشنجا - شهده اليوم في عديد من تصريحات ومواقف بعض اعضاء مجلس الشعب والامانة العامة للاتحاد الاشتراكي وكتابات بعض المسؤولين وتصرفاتهم . فالشيخ عبدالعليم محمود - وزير الاوقاف قد تخصص في ادانة كل ما يمت الى العقل والعقلانية من قريب او بعيد ، فالحضارة اليونانية « نزلت بالقيم الى المستوى البشري في نقصه وتخبطه » عندما ابتعدت عن « السمو الروحي » ، واخذ الناس يالفون البدعة ، وبدعة الجدل البشري بما فيه من نقص وتخبط . و « المقياس العقلي للتمييز بين الحق والباطل في عالم العقليات لم يوجد ولن يوجد (لم يخترعه ارسطو ولم يبتدعه ديكارت) « يهاجم الكندي والفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد لانهم يرحبون في اثبات الحق والباطل الى ادلة عقلية « وهو يدعو الى الرجوع الى « جو الفطرة الطاهرة والشعور الصافي والبداهة الواضحة » ثم يهدد « اذا شد في ذلك شاذ فليكن في القانون ما يمكن القضاء من دعه » ✘

ولا يمكن ان ننزل ظاهرة « الثورة الليبية » وانجازاتها الفكرية عن ظروف ازمة النكسة وآثارها في ثمره من ثمار الهزيمة . اذ يقدمون فكر الجامعة الاسلامية في اكثر صورها تخلفا كبديل للقومية العربية (الاولى عمادها التعصب الديني . والثانية تستند الى فكر مستنير علماني يستهدف توحيد كل طوائف وفئات الامة العربية وقد جاء في توصيات المؤتمر الوطني الاول للاتحاد الاشتراكي الليبي ✘ « يؤكد المؤتمر ان الاسلام هو المنبع الوحيد للقيم والحضارات الانسانية وهو رسالة سماوية ذات زاد فكري لا ينضب الى البشرية كافة يطرح بعمق ووضوح نظرية شاملة فشلت كافة المذاهب في طرحها ، وهي رسالة تحل تناقضات الشعوب وتذيب فوارقها .

وفي ندوة الاهرام يبدأ القذافي من فكرة ان « الدين الاسلامي هو القاسم المشترك » ليتابع حديثه بقوله « وعليه يتدخل كل الناس في دين الله كافة ، وتنتهي عمليات المناقصة » ✘

في هذا المناخ كان من الطبيعي ان تنتعش الاتجاهات المرفقة في الفيسية والدروشة والتطرف والتزعات الشوفينية وان تبذل محاولات من بعض الدوائر المعادية لاثارة فتنة طائفية بين الاقباط والمسلمين بهدف تفتيت الكيان الموحد المتميز بتماسكه التاريخي . (حوادث حرق الكنائس وبعض محلات الاقباط) .

لكن ، خلال عملية الاستقطاب التي تجري داخل المجتمع المصري والعربي ، وفي مواجهة التيارات الفكرية اليمينية الشوفينية والدينية ، تنمو ايضا الاتجاهات التقدمية واليسارية وتكتسب ارضا جديدة وتأييدا متزايدا من جانب القوى الشعبية . الفكر الليبرالي التقدمي والتيار الناصري اليساري والاتجاه الماركسي اللينيني .

- ٤ -

يمكن ان نستخلص من العرض السريع السابق الملاحظات التالية :

- ١ - النزلة والانفلاق داخل دائرة الخلافة الاسلامية وحصار الفكر ✘ من مقالات نشرت بالاهرام ايام ١٥ - ١٩ - ٢٢ اكتوبر ١٩٧٢ .
- ✘ اهرام ١٩٧٢/٩/٥
- ✘ ندوة الاهرام مع الرئيس معمر القذافي في ٧ / ٤ / ١٩٧٢

السلفي اغرق البلاد في اسر هرون طويلة من الانحطاط الحضاري والفكري .

٢ - ان اللقاء مع الحضارة الصناعية المتقدمة - رغم طابعه الاستعماري - سمح للعرب بتمثل الجوانب الايجابية من الحضارة الغربية والاستفادة منها في تحديث الفكر العربي وخلق نهضة عربية، قادرة على التصدي للتدخل الاجنبي وارساء قواعد قومية عربية متحررة متحضرة وعصرية ، اي استخدام الجوانب الايجابية في الحضارة الغربية لفتح المظاهر السلبية لهذه الحضارة .

٣ - انه كلما قطعت النهضة العربية شوطا في طريق التقدم ، يسارع الاستثمار الى التدخل لاجهاض هذه الحركة وادها ، اي ان قوى خارجية كانت تبادر الى التدخل في اللحظة التي يبدأ فيها الحصاد . (حركة محمد علي - اسماعيل باشا - احمد عرابي - ثورة ١٩١٩ - انتفاضات ١٩٣٦ - الهبات الثورية في ١٩٤٦ - ١٩٤٧ - تصاعد الحركة الوطنية عام ١٩٥٦ - والانجازات الاجتماعية والسياسية لمرحلة ١٩٦١ - ١٩٦٥ وجاء التدخل في الحالات الثلاث الاخيرة من جانب اسرائيل وتمثلت في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ وعدوان ١٩٥٦ وعدوان ١٩٦٧) .

٤ - على اثر كل هزيمة للحركة الوطنية ، كانت تسود فترة من الردة في مجال الفكر والثقافة .

٥ - رغم الطابع الوطني لحركة ١٩٥٢ ، وكل ما انجزته في المجال الوطني والاجتماعي ، فان هذه الحركة كانت تشكل - موضوعيا - نوعا من الاجهاض - من الداخل - للحركة الثورية التي بدأت على اثر الحرب العالمية الثانية . يتأكد هذا الواقع اذا أخذنا في اعتبارنا ضخامة المد الثوري ونضج الوعي وانتعاش الفكر الثوري الراديكالي والطابع الشعبي الجماهيري لهذه الحركة الثورية .

وكانت أخطر سلبيات النظام تتمثل في حرصه على كسر الجناح الديمقراطي الشعبي للثورة الوطنية « الديمقراطية » والحجر على حرية الفكر وابتكار صياغة « ايدولوجية رسمية » واحدة ودائرة فكرية لا يجوز الخروج عنها . وترتب على ذلك الافتقار الى متطلبات الاستمرارية والتجدد في الثورة والعجز عن توفير مقومات حماية البلاد .

وكانت الحركة الوطنية التحررية في مصر تتجه دائما الى العدو القوى او النموذج الحضاري المنتصر لتستوعب افكاره ومنهجه، وتتمثل هذه الحضارة لتجعل منها عوناً لها في معركتها القومية وسلاحاً في التصدي للفتوى الخارجي من خلال نهضة قومية شاملة .

ومنذ بداية القرن التاسع عشر كان النموذج الاوروبي وفكر الثورة البرجوازية والمنهج الليبرالي والنظرة العلمية هي مركز الجذب الاساسي في المجتمع العربي .

ومع المد الاشتراكي وانتصار الثورة السوفييتية ظهر نموذج جديد .. هو النموذج الاشتراكي - خاصة بعد انتصار الاتحاد السوفييتي في الحرب العالمية الثانية - وتبنت قطاعات متزايدة من القوى الثورية الفكر الاشتراكي العلمي - الماركسية اللينينية - وبالذات لانه يشيد حضارة نجحت في هزيمة الحضارة البرجوازية الغربية وانجزت مهام الثورة الاجتماعية وحررت الانسان - ليس من الاجنبي فحسب بل من استغلال اخيه الانسان . وكان للثورة الاشتراكية اثر بعيد في تأكيد حقيقة وامكانية التزاوج بين الثورة الوطنية والثورة الاجتماعية .

لكن الاستثمار زرع على ارضنا نموذج ثالث نموذج (دولة اسرائيل) ، يفكرها الصهيوني ، وما حققته من انتصارات في حروب ثلاث على مدى اقل من عشرين عاما وفي تجربة وصفت بانها بلغت حد « الاعجاز » من جانب دولة صغيرة ضد « مائة مليون عربي » .

وهكذا اصبح المطروح على القوى الاجتماعية في العالم العربي ثلاثة معايير للنصر : المعيار الليبرالي والمعيار الاشتراكي والمعيار الصهيوني ، باعتبارها الطريق الذي يوفر مقومات القوة .

المعيار الاول والثاني تتبناها القوى الوطنية من منطلقات طبية منبائة ، فالطبقة العاملة اساسا والفئات الشعبية الكادحة تتجه الى اختيار النموذج الاشتراكي والبرجوازية الوطنية - اليسار والوسط - يتبنى المعيار الليبرالي - اما اليمين الرجعي وقطاعات من اليمين الوطني ، فتبني الجانب المقابل للفكرة الصهيونية .

ان المفهوم المبسط عن مقومات النصر عند اسرائيل هو النقاء العرقي المعتمد على النقاء اديني ، والذي يقول باستحالة التعايش بين اليهودي وغيره من بني البشر ، المجتمع الواحد في مواجهة المجتمع الكثرى او الواحدة Monism مقابل الكثرة Pluralism وحنة الدين لا تعدد الاديان .. ثم .. الارتباط والاعتماد على المسكر الامبريالي العالمي .

لذلك سادت التيارات الغيبية وانتعش الفكر الاسلامي المتطرف والعقلية الشوفينية وراج شعار الحل الامريكي بين قوى اليمين الرجعي والوطني وانتشرت هذه الاتجاهات بين قطاعات واسعة بين كل الطبقات بدرجات متفاوتة مما يشكل تهديدا لا يستهان به للنهضة العربية وحركة التحرر الوطني .

والواقع ان الهزيمة ليست هي المسئول الاساسي عن سيادة هذه التيارات الفكرية الرجعية ، بقدر مسئولية حالة الاستسلام لها من جانب القوى الحاكمة العربية ، وافتضاح عقم هذه القوى عن انجاز مهمة التحرير . كما ان القوى الثورية العربية عاجزة عن ان تصبح البديل للنظم الحاكمة المتخاذلة في المدى القريب ، ولم تقدم بعد الحل المقنع او الممارسة العملية الفعالة للخط التحرري .

ان الاحساس بالعجز والبلبلة الفكرية وعقم القيادات وفقدان الثقة في امكانيات انجاز المهام المطروحة على النطاق القومي دفع بقطاعات كبيرة من ابناء الشعب للهروب الى الدروشة الدينية ابتغاء رضى الله ، باعتباره وحده المطالب بردع العدو ، ولا يتبقى للمؤمنين من مهمة غير انتظار انفاذ ارادته فيه ، ويكفي المؤمنين شر القتال . وبطبيعة الحال ليست الارض حكرا لهذا الاتجاه فقد شهدت المرحلة الاخيرة صحوة للفكر الماركسي والاتجاهات الليبرالية الراديكالية خلال عملية الاستقطاب الفكري والسياسي التي تجري اليوم على قدم وساق .

ميشيل كامل

((القصة العربية الحديثة))

عدد ممتاز من ((الآداب))

تعززم « الآداب » اصدار عدد ممتاز في اوائل العام القادم ١٩٧٣ يضم - احدث نماذج القصة العربية القصيرة من انتاج القصاصين في مختلف اقطار الوطن العربي .

فالمجلة تدعو كتاب القصة العربية القصيرة الى الاسهام في تحرير هذا العدد الممتاز .